موت فرنشيسكو فرنشا

مترجمة عن الايطالية

— ...

يا بنى ! لا جدال فى أن عصر النهضة الايطالية عصر ربيع للحياة الفنية العظيمة ؛ أورق فيه الفن وأزهر ، ونهض الرسم نهضة قوية جبارة ، إذ نفض عن كاهله رماد الموت ، ونفخ فى هيكله روح حياة جديدة ، فجاءنا بكل شهى بهى ، وأسعف ذوقنا بكل رائع خلاب

أوجد من الرجال العظام ومن الرسامين الفطاحل ما يدهش لمده وحصره كل قارئ وكل مؤرخ : رجال أكفاء ، أفذاذ ، فى المناقب والأعمال ، جبابرة فى التفكير ، عظماء فى الابداع والخيال

وكلنا مشوق ولا شك إلى دراسة حياة رجالات هذا العصر ، لتفهم طراز درسهم للفن ، وطرق تدرجهم نحو ذروة الكمال والمجد : بعد أن طواهم الردى واحتوتهم الرموس ومن الغريب العجيب كما قال (أوسيان) أننا حين ذكرانا لهم وتتبعنا خطواتهم ينهضون معاً ويأتوننا مجتمعين ليذكرونا بقيمة فنهم المتحد المشترك ، وبقوة الدهر الذى عاشوا بين أحضانه حتى أصبحوا خير مثل

هناك حوادث كثيرة ، ومناقب طريفة نقلها إلينا تاريخهم العامر المجيد ، قد نظنها عند سماعها إنها من خيال الكتاب أو من تزويق الرواة مستحيلة الوقوع خارقة لطبيعة الواقع . ولكن ها هي آثارهم الخالدة لا تزال تستهوى لبنا بعد أن طواها البلى ، فكيف بها وقت أن كانت فى صبح شبابها الرائع ، وفى عصرها الذهبى الذاهب ؟!

هناك قصة يهلع لسماعها القلب ويخشع ، هى قصة الفنان العظيم (فرانشيسكو فرانشا) أستاذ المدرسة البولونية اللومباردية

ولد فرانشيسكو فرانشا فى أسرة متواضعة فقيرة

* * *

ثم جعله أهله فى صغره عند صائغ فكان الفن الرفيع متجلياً فيما يبدع . ولما شب كان أمراء (لومبارديا) يتقدمون إليه لينقش لهم صورهم على العملة التى كانوا يسكونها . ولم يقتصر الإعجاب به على أمراء بلده فحسب ، بل تعداهم إلى أمراء المقاطعات المجاورة ، فكان هؤلاء إذا زاروا (بولونيا) — موطن الفنان — أوفضوا إليه ليطبع صورهم على اللوحات المعدنية ، وينقشها على العملة التى يريدونها ، كما كان يصنع لأمراء بلده وأقيالها

ومع ما بلغه فرانشيسكو من المنزلة السامية والمكانة المرموقة كانت نفسه التواقة تتطلع إلى ذروة أسمى مما وصلت . ولما بلغ الأربعين حولاً ، وجه عزيمته الجبارة لشق طريق جديدة لم يسلكها أحد قبله ...[1] تعتمد على العلم والدراسة والذوق والحس ... وها هوذا يبدأ بدراسة الرسم ، فيدرس توافق وتراكيب الرسوم[2] ، وتناسب وامتزاج الألوان[3] ، وأثر وقوى النور ، وأساليب رسم المنظور بالطرق الهندسية[4] . فاستطاع بعد هذه

(١) المعروف أن الفن الايطالى أخذ بالنهوض منذ القرن الحادى عشر — وأذا لم نغالي فنقول منذ القرن التاسع — على يد « جاكوبو توريتى » ومن ثم على يد « جوتو » إلى أن يأتى القرن الرابع عشر فنهض الرسم على يد نخبة صالحة كالراهب « انجيللو » الذى استطاع أن ينفخ فى رسومه روح الوداعة الملائكية ، أو « شيللو » الذي درس المنظور دراسة واسعة « وأندرا كستانيو » و« مزاجو » وغيرهم ... إلى أن يأتى فرانشيسكو وغيره من العظماء الاساتيذ

(٢) أعنى — La composizione

(٣) أعنى — L'armonia

(٤) أعنى — La prospettiva

الدراسة يخط فى مدة قصيرة لنفسه طريقة جديدة فى عالم التصوير :هى المعروفة فى التاريخ (باسم المدرسة البولونية اللومباردية)

اعترى سكان لومبارديا ضرب من الذهول والتعجب حين طلع عليهم فرانشيسكو بلوحاته الجميلة وجاماته البديعة ، وكانوا يستقدون استحالة الجمع بين النقش والتصوير ، وخاصة بهذه السرعة العجيبة . ولكن الأمراء لم يسيروا مع ذهولهم ولم تطل ساعة تعجبهم بل راحوا يختطفون ما أنتج من لوحات وما أبدع من جامات ليزينوا بها دورهم وقصورهم كما كانوا يستبقون قبلاً لشراء آثاره المدنية المنقوشة ...

نال فرانشيسكو فرانشا منزلة سامية فى الرسم لا تقل عن منزلته فى النقش فى وقت كان فيه اسم (رافائيللو سانسيو) العظيم فنان روما وصاحب الحظوة عند البابا ، قد سار به الركبان وردده الخافقان . فنجاح فرانشيسكو إذن لا يفسر بخلو المكان وفقدان المنافس ، كما أن شهرته فى النقش لم تكن ذريعة للنجاح أو الزلفى إلى الأمراء والكبراء ، لأن الكفاية الفنية ليست كضربة لاعب أو رمية رام ؛ بل هى ومضة علوية تشع آلاف الأشعة الوهاجة ، فتتير من نفسها طريق الفهم وتدلنا على مواقع الاسقاف أو السمو بدون إبهام ولا خداع ؛ فترى بأعيننا آثار هؤلاء الفنانين العظام الذين هم بحق نعمة من نعم السماء

لاشك أن فرانشيسكو كان من ألمع رجال الفن فى عصر النهضة . له كما لهم المنزلة المرموقة فى نفوس رجال النقد والتأليف فى العالم أجمع ، لا لشىء إلا لأن هذه الصفوة العجيبة من الفنانين العظام استطاعت أن تشيد على أنقاض الجاهلية الجهلاء صرحاً مكين الدعائم رفيع الأركان فى أفسح ساحات المدينة الفاضلة وفى عالم الفن الرفيع الخالد . وكانت يد فرانشيسكو من أطول الأيدى وأقدرها على رفع الأساطين وتشييد الجدران ، فأنتجت وافر الإنتاج وأبدعت غاية الإبداع ، وطافت على قصور (لمبارديا) فكستها الجمال ، وأكسبتها الفتنة والملاحة . وراحت إيطاليا كلها بعد لومبارديا تذكر فرانشيسكو بكل إجلال وإكبار

كان رفائيللو في روما يرهف سمعه للصدى الخلاب الذى تتجاوبه الأفواه العجبة . وكان يصغى بقلبه للحديث العذب الذى يتحدث به أهل بولونيا عن فنانهم العظيم ، وكان يطرب لموسيقى اسم الفنان ويتشوق لرؤية آثاره وطلعته ، وقد أسعفه الحظ فرأى ما أعجبه فاتصل رفائيللو بفنان لومبارديا فأطرى طريقته إطراء جميلاً وامتدح أسلوبه وقرظ فنه الحسن العجيب

لقد بلغ فرنشيسكو بحق منزلة رفيعة من لطف الحس ورقة الروح وجودة الأسلوب ودقة العمل ، وقد أعجب بفنه كثير من الكتاب ، وغالى أحدهم فدعاه إله الفن . وقد قال (كافازونى) إن رفائيللو بعد أن رأى (عذراء فرانشيسكو) تحرر من الجمود الذى علق بفنه من اتباعه طريقة (پروچا) وخلص من الجفاف المشاهد اليوم على بعض لوحاته قبل تأثره بفن فرانشيسكو . وروح الفنان كالأسفنجة ما جاورت غديراً إلا تشربت من مائه

لم يكن إطراء رفائيللو لفرانشسكو إلا قوة جديدة دفعته إلى الاستزادة ، ورأى أن فنه لم يصل بعد إلى المكانة القصوى ، واتخذ من مدح رفائيللو له جناحاً جديداً سيساعده على الطيران فى عالم الخلود

كان فرنشيسكو دون سائر الفنانين يستطيع أن ينافس رفائيللو الحظوة التى كان ينعم بها عند البابا وفى نفوس أهل روما ، وكان فى قدوة فرنشيسكو أن يبارى رفائيللو فى حلبة الفن ويطاوله فى سماء المجد ، ولكن الحظ لم يواته فلم ير لرفائيللو أثراً ليضرب الطريقة التى يسير عليها ضربة قاتلة[1] . كان مقيما بولونيا لم يبرحها طيلة حياته ، وكان رفائيللو مقيما بروما وروما ضنينة به والبابا من أحرص الناس على ملازمته . وكان فرانشيسكو الشيخ يتشوق لرؤية آثار فنان روما قبل إغماضه الغمضة الأخيرة ، رغم الفكرة التى استخلصها من وصف الناس لفنه ومن الكتب التى كان يتلقاها منه لماماً ، فقدر أنه مثيله فى نواح متعددة ، وقد يفوقه فى إحدى النواحى العميقة التى وصل إليها بطول المدة التى مارس فيها الرسم

* * *

جاءه البريد يوماً بكتاب من رفائيللو يقول له فيه : إنه أرسل إليه لوحة (للقديسة سيشيليا) أعدها لكنيسة (سان جوفانى) بمدينة بولونيا نفسها ، وأنه يرسل هذه اللوحة إلى صديقه

(١) يقول التاريخ إن رفائيللو أرسل لفرنشيسكو فرانشا صورة عن لوحة رسمها قبل أن يرى لوحة القديسة سيشيليا (المعرب)

(فرانشيسكو) أولا راجياً منه التكرم بمراقبة وضعها بالمكان الذى أعدت له . وقد يكون السفر الطويل قد أضر بها ، أو ربما يرى فيها بعض هفوات فنية ، فهو (أى رفائيللو) يرجو منه إصلاح ما فسد وتصحيح ما أخطأ فيه . على أن لغة التواضع التى اتبعها رفائيللو في كتابه إلى صديقه فرانشيسكو وأذن له بأن يعمل ريشته فى اللوحة التى سيرسلها إليه ليتحقق من سلامتها وصحتها؛ كل هذا أثار فى نفسه ثورة متضاربة شديدة من الأخيلة المضطربة ، ولم تسعفه مخيلته فى تصور ماسوف يري ، أو فى تقدير ماسيشاهد من المقدرة الفنية والبراعة التصويرية

وفى عصر يوم من الأيام التى مرت على وصول رسالة رفائيللو إليه رأى تلاميذه يوفضون إليه فرحين مستبشرين يزفون إلى أستاذهم خبر البشرى بقدوم اللوحة المنتظرة ، وكانوا قد أعدوا لها مكاناً حسناً فى المعمل على ضوء كامل

ها هى الدنيا تدور برأس فرانشيسكوالشيخ ... ولماذا ؟ ..

أنى لنا أن نصف لرجال هذا العصر الشعور الذى غمر نفس ذاك الفنان العظيم حين شاهد لوحة أحبيته وملكت لبه ؟! هو شعور أخ فارق أخاً له منذ الصغر ، وارتقب عودته على نار النفى ... وفى الوقت الذى فتح ذراعيه لعناقه كان أمام ... أمام ملاك سماوى باهر الضياء

خفق قلب الشيخ المسكين وعنا وجهه وخشع أمام جلال الفن الرهيب ، وانحنت رجلاه ساجدتين كأنه أمام كائن سماوى مهيب ...

سمر فى مكانه وتسارع الطلاب إلى أستاذهم يسرون عنه بعض ما حل به ، ولا يفهمون لكل ما حدث سبباً ... أمطروه بالأسئلة والشيخ فى عالم غير عالمهم ...

صحا الشيخ قليلاً ... ولكنه ما زال شاخصاً نحو اللوحة السمائية (لوحة رفائيللو) ينظر وينظر ... وكيف لنا أن نعرف ماذا كان يفكر في هذه الساعة الرهيبة ؟

لقد تحطم المسكين أمام شعاع العظمة ... وها هو يسائل نفسه بغصة وألم عن السبيل إلى التكفيرعن الجريرة التى اقترفها . إنه لكنود كفور . تطاول على رفائيللو العظيم وغمطه فنه . ولقد خيل إليه عن جهل وطمع أنه ضنو له وند ... وقد طفق يعمل أصابعه الواجفة بشعره الأشهب الأشيب ويزرف الدمع سخيناً غزيراً على ما فرط فى جانب الفن . لقد كد وجد فى حياته طمعاً فى المجد ، ولكنه فى الساعة الأخيرة من عمره رأى صرح فنه الفخم ينهار أمام عظمة روفائيللو . تطلع إلى حيث كانت تنظر القديسة المصورة ... إلى السماء وكشف عن قلبه المحطم وصلى صلاة قصيرة طلب فيها الصفح والغفران ...

خانته ركبتاه وضعفت رجلاه عن حمله فسارع تلاميذه إليه فحملوه ...

وكان وهو خارج من معمله ينظر إلى بعض لوحاته المعلقة ونفسه تذوب حسرات وألما . وألقى نظرة الوداع على لوحة دفن القديسة سيشلسيا التى كانت لاتزال فى معمله وخرج .

مرض الشيخ ، واصطلحت عليه الأوصاب . وأخذت ذاكرته تخبو ، واستولى عليه هذيان الحمى الأخير ، وراحت تعتاده السكرات والغمرات ... لقد خان العقل الجبار صاحبه فى أواخر ساعاته ، ذاك العقل الذى غبر زمناً طويلاً يبدع الوجوه المشرقة ويسوى الأجسام على الأقمشة بالألوان والأصباغ ... واجتمعت تلك الوجوه التى أبدعتها مخيلته السحرية وخلقتها ريشته الصناع دفعة واحدة مع سعير الحمى المتأججة وراحت ترقص رقصة الشماتة والسخرية . وترفل فى ثياب رثة بهيئات مقلوبة ممسوخة ووجوه مشوهة دميمة ، تدق طبول الملع وتنفخ فى بوق الفزع ، وتقرب ما بينه وبين الهوة المجهولة ...

وزاره طلابه يستفسرون عن صحته ... فاذا هو قد فارق الحياة ...

حقاً لقد كان هذا الرجل عظيما ، حينما شعر بالضعف أمام عظمة رفائيللو العلوية ، عظيما عندما أثر فى نفسه فن رفائيللو هذا الأثر الغريب . إن عبقرية فرانشيسكو فى رأى حكم النقاد والمؤرخين هى فى طليعة العبقريات الفذة ، وآثاره تنطق بأنه راح ضحية النشوة والانفعالات الفنية[1]

(١) زار (ميكيل أنجلو) العظيم صحبة البابا جوليو الثانى مدينه (بولونيا) فلقى فى طرقها ابناً لفرانشيسكو ، وكان صبوح الوجه جميل الخلقة ، فربت على ظهره وقال له : (إن أباك يحسن ولادة الوجوه الحية لا الوجوه المرسومة) فرأى (انجلوا) كما يرى القارئ بناقض رأى رفائيللوا الذى كان يرى فى فرانشا الفن والذوق والبراعة العظيمة الكاملة

« المعرب »